نصيحة خوسيه ساراماغو الذهبية(1)

إيناس عبد الله *

نحن لا نختار مواهبنا، بل هي التي تختارنا. هبة غامضة كالمعجزة لا ندري من أين أتت، تبدأ بالشك وتنتهي بالإلحاح، ليست قراراً بقدر ما هي مصير.

كان علي أن أكتب كي لا أجن أو أنتحر، أو كي لا أعيش ما تبقى من حياتي دون إحساس بالذات، لكن الحقيقة أنني كتبت ربما كي أنتقم من أسر أحلام اليقظة التي لم أكن أملك غيرها، من الخوف من كل شيء وعلى أي أحد، حتى من أمراضي وأوجاعي الطفيفة والخطرة.. من الحب، من الإساءة، وتقريباً، من كل شيء وكل أحد شعرت بالعجز أمامه.

الكتابة كالانضمام إلى حزب محظور، في البداية تتطلب السرية التامة، وفي النهاية لا بد من أن تحدث تغييراً أو شبه انقلاب فاشل. ابنة الرابعة عشرة التي كنتها يوماً أحست بميل مفاجئ واستثنائي نحو اللغة وكتب الآخرين، وكنت قد وصلت إلى السن الخطرة التي لا يمكن فيها الخوف من مغامرة صغيرة كتلك.

تبدلت دون ضجيج. اقتلعت نفسي من عالم لأغرز أطرافي الجريحة في عالم آخر وأستمر، في يوم واحد وساعة واحدة لم أحددها قررت أن أكتب، كما يقرر البركان أن ينفجر، وكما يقرر إعصار أن يجتاح ويدمر، وربما كما يقرر شخص قتل شخص آخر. كلها قرارات متروكة للحظة الأخيرة، لم ولن تمر بسلام.

رأسي يومها لم يعد يتسع لأحلام العظمة التي ينسجها خيالي وإحساسي الطاغي بأني أنمو وأتبدل فيما تقفل ورائي بوابات الطفولة بإحكام إلى غير رجعة.

كنت أعي أني أختلف داخلياً عن الآخرين، على الأقل بسبب حساسيتي الشديدة، وردة فعلي القاسية تجاه المشاكل الحياتية المعهودة، ونوبات الحزن التي تتم غالباً دون معاناة حقيقية. أصبحت كالكذبة، يصدقها البعض فيما يرفضها البعض الآخر. وكان علي أن أتحدث عن أكاذيبي الحقيقية تلك بأية وسيلة.

أذكر جيدا أن هناك من قال إن الطفولة باقة روائح. وحينها قررت أن أكتب عن باقة الروائح تلك بسبب الشك في فقدي حاسة الشم نهائياً، روائح كثيرة لن أنساها؛ رائحة الأرض بعد المطر، رائحة ورود ربيعية غامضة لا اسم لها، رائحة ثمار الصيف وغبار الخريف، ورائحة الأم والأب والجدة والأخوة والعائلة، رائحة قصص المعلمات المرتجلة لتهدئتي في سن السابعة، حتى رائحة المقبرة، رائحة الأحياء والأموات والحيوانات والبلح والنباتات. بدأ الزمن يتخطاني، وحينما توقفت المراهقة عن سد مداركي بالكامل تيقنت أن الحياة والعالم والزمن والناس هي ليست أشياء للضياع وأن النسيان المتعمد جريمة.

تحولت إلى دودة كتب يمكن إيجادها في أية مكتبة مجانية نائية، وكففت عن الصراخ، وتغشّاني الصمت. شعرت بالعزلة والوحدة دائماً رغم أنني لم أكن وحيدة يوماً. بل لطالما ازدحمت حياتي بالأصدقاء والخصوم حتى أنني شبهت نفسي بمحطة

القطارات، فإما يأتي إليّ الناس وإما يذهبون، بسعادتهم، بحزنهم، وأيضاً بقصصهم التي أثرت فيّ كثيراً.
أعتقد أننا بولادتنا لا نبدأ بداية حقيقية، إنما نكمل شيئاً كان، نكمل عن آبائنا وأجدادنا وأسلافنا الممتدين عبر الزمن بسلسلة لا نهائية من البشر والأفكار والأحاسيس والعبقرية والغباء والطيبة والخبث والحب والكراهية وملايين المصطلحات الأخرى التي يدور أغلبها حول إنسانية غائبة أو مُغيّبة. وأنا أكملت عن جدتي، أيضاً، جدتي امرأة غريبة الأطوار ظلت تهمس لنفسها بالكلام مدة ثمانين عاماً، حتى حين تكون مجتمعة بأحد فهي تهمس لنفسها أيضاً لا تبالي بمن حولها، أغضبني همسها في البداية ثم تعودت على ذلك، حتى أني رحت أهمس مثلها، لكن بنبرة أعلى قليلاً.
تعلمت أن أحدث نفسي عن كل شيء. صرت ثرثارة بارعة، لكني تعلمت شيئاً مهماً وهو أن أنتبه وأصغي وأتعلم! أن تكون لدي وجهتا نظر بدل واحدة، وأن أنظر مرتين إلى كل شيء؛ نظرة بشك، ونظرة بفضول!
سحرتني كتب التاريخ عندما بدأت أقرأ تاريخ الحضارة لـ «أرنولد توينبي»، واستحوذت عليّ روايات جبران وغسان كنفاني وفلوبير وبيرل بَك وجون شتاينبك ويوسف إدريس وماركيز وغيرهم، ممن أصابوني بالدهشة والفضول، وأضحى ذلك الوهم حقيقياً لدرجة أنني أحببته أكثر من أي شيء آخر، أكثر من تصميم الأزياء، والأدب الانجليزي أو التدريس، أو أي ميول أخرى يقنعني بها المجتمع، في عملية غسيل الدماغ الإلزامية التي يقوم بها، عندما يتعلق الأمر بالمتاح لفتاة لم تكن عدائية ضد المجتمع يوما. لكن رغبتي بالتحدي والقفز فوق المتاح أو الممكن، ودهشتي من قدرة اللغة على التسلل إلى رغباتي العميقة وتغييرها، دفعتا بي نحو اختياري الكتابة.
شيء آخر هو أنني لست ذاتية جداً، أي أن الآخرين يهمونني وأؤمن بأن الذات هي نقطة انطلاق وليست نقطة تمركز، ودائماً أنا جاهزة لتلقي توابع اختياري.
جربت الخوف من رأي الآخرين حول البداية الأولى ومن الفشل في تحقيق مشروع روائي يعطيني حصانة ضد المشككين فيّ. جربت فأحبطني ذلك، ولم أعد سوى كسولة لا تكتب إلا عندما ينهار حولها العالم وتصبح هي الحائط المشقق الأخير، لكن المدعّم ضد السقوط. لم أسقط لأني أكتب. هذا حقيقي، حقيقي جداً كامرأة، عالمي المحاط بسياج مكهرب علمني أن أعرف حدودي حتى ولو سرت مغمضة العينين، السياج الذي يحيط بأغلب النساء العربيات والشرقيات، وأرغمت على حفظ قائمة الممنوعات الأخلاقية والشخصية، وحاولت فهم كل تلك الوساوس المشوشة التي تعرقل تفكير الرجل بالمرأة والتعامل معها على أنها كائن حيّ مفكر، وليست مجرد أسطورة لذة أو لعنة. وفهمت أنني لست الوحيدة المشاركة في التمرد ضد المجتمع فسعيت للتميز بذلك التمرد.
جسدياً لا أقوى على قتل حشرة، عقلياً لا أفضل التفكير بالشر بحيث إني لن أفهم أبداً كيف تتحول حماية المرأة من العبث إلى قمع وإقامة جبرية وخنق عاطفي، ومعاملتها كأنها مشروع جريمة يجب وقفه. إبداعياً يمكنني المقاومة، فالعالم يتغير، وهناك الآن من يسمع صرخات الاحتجاج، ويوجد من يقدر امرأة تكتب!
عشت طيلة حياتي مع أناس كانوا جزءاً من تراب وأرض وأشجار وأساطير، جزءاً فقط دون أن يدّعوا أنهم كل شيء، لطالما شعرت بسطوة المكان عليّ. إنها حياة الجبل، عالم الأماكن المرتفعة، عبر الأودية في ريف رام الله الساحر.
تعلمت أن أعيش بسلام مع كل شيء يمكن تخيله، ابتداءً من طين الشتاء وحتى ثمار الصيف، ومن الحشرات السامة حتى عصافير الدوري مع أمراض الطقس المتقلب وأفراح الحب الأول!
زودتني كل تلك الأمكنة التي عربدت فيها طفولتي بقدرتي على البوح، فحتى الآن، ومهما حاولت، لا أستطيع كتم سر. وحتى الآن، ومهما حاولت، لا أستطيع التزام الصمت، أو الهدوء، ولم أستطع كبت شهوة التيه في الأماكن المعزولة الغريبة.
تجذبني روائح الأمكنة والنباتات البرية وحلم رؤية الثعالب لا الأوكار المهجورة. كان لكل شيء قصة هناك، ومن هناك

تعلمنا كيف نخبر بعضنا قصصاً عن كل شيء. وبعد هجرتي القسرية من الجبل إلى الصحراء، حيث لا نباتات ولا ثعالب ولا قصص، تفشى فيّ الصمت مع إحساس مُركَّز عالٍ بالغربة.

كنت كالمزيج الغريب في عالم المدن المشيدة من أجل النفط: لا أنا أرسب في القعر ولا أنا أرسو على السطح، ولا حتى جربت الذوبان، فبقيت عالقة وبدأت أرتعب من فكرة أنني امرأة طارئة تركت تاريخها في مكان آخر، فبدأت أكتب، وأعادت إليّ الكتابة اعترافي الشخصي بنفسي، ولولاها لتغيرت وصَعُبَ جداً التعرف عليّ مجدداً.

تلك الكتابة التي أفلتتني من مداري، ربما لم تحقق لي رغباتي الأصلية بالكامل، لكنها، على الأقل، ساعدتني على تخطي محن مختلفة، وجعلتني ألجأ لعقلي أكثر من ذي قبل، والأهم أنها بددت وحدتي العميقة التي لطالما أرقتني رغم حياتي المزدحمة.

ولقد غيرت بالتأكيد نظرتي للعالم، بحيث تخطت تلك النظرة عتبة التمرد والشفقة إلى محاولة الفهم، بالمقابل جعلتني مترددة، أؤمن بوجود الكمال في العمل الأدبي، حيث لا شيء كامل أبداً، وشطبت من أجندتي الفكرية أنصاف الحلول، والتي لا تجدي سوى بإطالة أمد العذاب والانتظار.

من ناحية أخرى، لم أكن أنوي أن أظل شاهدة خرساء في حرب الابادة التي يتعرض إليها شعب أنتمي إليه وينتمي إليّ. لم أكن ضحية ولم تسعفني الشجاعة ولا الوقت لأناضل كما ينبغي، أكره أن أخاف وأحتقر ضعفي ومن ثم أي ضعف، وربما أصبح الأمر فيما بعد جزءاً حميماً من الواجب الوطني، أن أكتب كفلسطينية حقيقية عما يتعرض إليه الفلسطينيون وقد فعلت، ثم خفت أن أغرق في الذاتية والقومية، فلست أكتب فقط عن فجيعة الضحية وترتيبها حسب مقياس البؤس الإنساني، ولا عن شراسة الجلاد والدمار الذي يخلفه أينما حل، ولا عن الناس الذين قد يغيبون عن عالمي بإغماضة عين لأننا في قبضة موت مفتعل، بل أردت أن أكتب لتغيير ذلك.. ربما للشفاء من الغضب والقهر، وربما أريد أن أكتب أكثر عن شعب يصنع حريته ولا ينتظرها.

أحياناً يتراءى لي أنني أرى أشباحي الذين يلهمونني للكتابة عنهم. أراهم حقيقيين جداً، في لحظة تأمل صافية، أراهم حتى بصفاتهم الاستثنائية وأسرارهم الحميمة. فأنا أحلم دائماً بمن أكتب عنهم، حقيقيين كانوا أم متخيلين.

أحلام يقظتي التي تدور حولهم لا تنقطع.. لا أدري أين هو الحد بين الوهم والحقيقة، ولم أبحث عنه. ما يهمني هو أن يتحول الوهم إلى شبه حقيقة، فحتى لو كتبت وهماً، أريد له أن يتحقق.

فكرت في أن مواجهة العالم بالكتابة شيء صعب، فتلك المواجهة تتطلب أعصاباً قوية وعقلاً صافياً لا يتعطل كمحرك سيارة – فجأة – في طريق ناء، وإحساسي كالرادار يلتقط كل شيء. بالنسبة إليّ ظلّت أحاسيسي تتقلب علي كأدوات تعذيب. كل شيء كان يعذبني وما زال.

يختفي ذلك الإحساس بالعذاب بعيداً عندما أبدأ بكتابة أي شيء ولو حتى مجرد ملاحظة عابرة. وجدت أن انفصالي عما يكون داخلي هو طريقة رائعة للراحة ولو المؤقتة.

الكتابة تؤرقني أحياناً لأنها قد تعني عدم الانسجام مع العالم أو الآخرين، فأعود دوماً لارتكاب الحماقات ذاتها، التي لم تجد يوماً، في محاولة لإعادة التوازن بين حياتي كامرأة في مكان وزمان ما، وبين كوني كاتبة بلا مكان أو زمان، بلا حدود إطلاقاً، لا تذعن سوى للحد الأخير فقط.. حد الموت.

كتبت عن الموت، درت حوله. لا أدعي أنني فهمته وكشفت جوهره ومغزاه، لكن على الأقل استطعت تبريره، وتعلمت كيف أطرح سؤالاً عنه.

أما الحب، فهو أكثر تعقيداً. والكتابة عنه مرعبة لأنها قد تكون ساذجة كفتح وصية قبل ممات صاحبها: فكرة غير مجدية، وتحريف فاضح للواقع واستهلاك لعواطف محتضرة مرة أخرى أو اجترار بائس للعذاب. إنه العقل الواضح ضد القلب الغامض.

فرق شاسع بين الكتابة عن الحب والاحساس الطاغي به. لكن، دائماً، كانت كتابات الحب جميلة لأنها تتفنن في

حقيقة إظهار التناقض. وقد يكمن الفن هنا في كشف حقيقة المتناقضات وربما توسيع الهوة بينها. الإحساس البشري ضد المسميات الجازمة للكتابة. الجزء المتحرك والجزء الساكن، المستحيل والمعقول.
كامرأة لم يكن تقبلي سهلاً لما يقال عن أن المرأة تكتب لنفسها دائماً وعن نفسها فقط. أظن أنه لا فرق في المعاناة والتطلعات، أكان من يكتب امرأة أم رجلاً.
«تولستوي» كتب عن غيرة النساء في« آنا كارنينا» كأنه امرأة حقيقية. «بيرل باك» كتبت عن الرجال الصينيين كأنها واحدة منهم. الخلل يكمن في أن بعض الكاتبات العربيات يؤججن -عمداً- قضايا كتلك، كتنظيم ندوات عن أدب المرأة، واقتصار المشاركة على حشد من النساء وبعض الرجال.
وربما الخلل في عدم قدرة الرجل على تقبل امرأة موضوعية مُطلعة تهمها قضايا أخرى، غير نفسها واهتماماتها الأنثوية البحتة. لا شيء اسمه أدب المرأة، كما لا شيء اسمه أدب الرجل.
إن قلنا للمرأة أدبها فهذا فصل «جنسوي» بحت. نجعلها تبدو كحيوان على وشك الانقراض له أساليبه الخاصة في التعبير عن نفسه، وهذا غير صحيح. المرأة الآن نصف العالم وهي إنسان قبل أن تكون امرأة، إنسان يتأثر ويؤثر ، والإبداع إنساني أولاً وأخيراً، ولم يكن مذكراً أو مؤنثاً أبداً.
والمرأة دائماً متهمة ضعف ما يتهم به الرجل لأنها ببساطة الكائن الأكثر إثارة للجدل، عليها أن تعي مسؤولية كتلك، وأن تكف عن إلقاء اللوم، بدلاً من ذلك عليها أن تتقدم لتثبت بأن التفرد والموهبة تلغيان حدود التفرقة الجنسية تماما.
ولأني امرأة تكتب، عليّ أن أصبح بلا تعريف محدد، أن لا أكون ظل أحد في الماء. أن أصنع ظلي الخاص بي، ظلي الأصلي غير المقلد.
عليّ أن أحدث فرقاً وإن استطعت جعلته شاسعاً. التميز هو الهدف أو الحلم المشترك لمن اختاروا سلم الكتابة للتسلق والوصول. التقليد هو لمن يريد الانحدار لا الصعود. سبب ذلك لي الرعب حقاً. . الرعب من تقليد أحد، فزاد ذلك من مسؤولية التنقيب عن ينابيع جديدة تضع لي إبداعاً جديداً لم يسبقني إليه أحد. جهدت كثيراً لأكتب روايتي الأولى محاطة بكل تلك الوساوس عن الكتابة ورعب التقليد وشك الآخرين، وأظن أنني استطعت تجاوز تلك المحنة بسلام. روايتي على وشك النهاية الآن. لا يؤرقني نجاحها كثيراً، بل يؤرقني فشلها.
سعيدة لأنني أخذت بنصيحة «خوسيه ساراماغو» المكسيكي العجوز عندما قال في إحدى مقابلاته: «إن لم يكتب المرء روايته بنفسه، فلن يجد من يكتبها له أبداً».
تلك النصيحة رائعة لكل من يريد أن يكتب روايته أو يحلم حلمه الأول مثلي!

---

* قاصة فلسطينية تقيم في بيرزيت.

(1) من كتاب: مشوار كاتبات من فلسطين: شهادات ونصوص، ستصدر الطبعة الأولى عن منشورات مركز أوغاريت للنشر والترجمة، 2001.

لماذا لم تبحث عن هويتك هناك .. أو هنا ؟!

معن سمارة *

قبل قليل اغتيل أبو علي مصطفى . . كنت ليلة البارحة أقول لصديقي عبد الحفيظ : إن رام الله مدينة فقيرة في فرحها . .
كنا نمشي في شوارع خالية تماماً من الناس ما عدا الشرطة وقوات الأمن الفلسطينية المنتشرة في تلك الشوارع . .
كانت الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً ، وكانت المدينة تعرضت لقصف من طرفيها الجنوبي والشمالي في ساعات الليل الأولى .
صوت المدافع أفاقنا نحن الإثنين من نومنا المسائي . . حين وصلنا إلى وسط المدينة كان كل شيء طبيعياً . . موسيقى صاخبة تخرج من بعض المحلات الموسيقية ، وكتلة الناس القليلة تتمشى في الشوارع . . ضحكنا قليلاً أنا وعبد . . قلت له : شيء عادي جداً . . هناك على بعض مئات الأمتار يرقد الخوف . . وهنا لا شيء .
كنت قبلها قد كلمت أحلام ، وسألتها عن حالها ، بيتها قريب جداً من موقع القصف في البيرة ، صوت أحلام كان يأتي مرتجفاً وهي تتحدث بفزع عن أخيها الذي لم يوجد حينها في البيت وعن قلق العائلة عليه .
وكعادتنا في الكثير من الأحيان ، نعود للبيت مشياً على الأقدام ، وصلنا عند أحد الحواجز الفلسطينية الليلية في منطقة سكناي . . توقفنا عند مازن ، الجندي على الحاجز ، عندما رآنا من بعيد صرخ : « توقف يا معن ، وارفع يديك . . أريد أن أطخك » . . رفعت يديّ ضاحكاً : افعل ما تريد . . أنا كلي لك يا مازن . .
وصلنا عنده ، قبلنا بعضنا البعض ، وقال لي : حمداً لله على سلامتك من السفر ، لقد اشتقت إليك كثيراً .
سألته : ألم تتعب بعد؟
لم يجب ، وسألني عن رحلتي ، فأجبته ممازحاً : على الأقل لم أكن مضطراً لأن أعبر حواجز مثل حواجزكم الليلية هذه . .
أدار وجهه عني ، وقال بألم : أنا هنا لأحميك يا معن ، إذا لا تريد ذلك فسأرمي سلاحي هنا ، وأذهب لأنام كما ستذهب أنت لتنام الآن .
اعتذرت له ، وأوضحت أني كنت أمزح معه فقط . ضحك مازن وأكمل حديثه : أريد أن أخبركم هذه النكتة : كانت هناك امرأة تنام في أحضان زوجها ليلاً ، وفجأة سمعت صوتاً تحت الشباك ، فقالت : يا رجل : انهض لترى من الذي تحت الشباك ، فرد زوجها عليها : لا تخافي يا امرأة ، فهو لن يكون سوى كلب أو جندي . . . ضحكنا على ذلك كثيراً ، وعلق مازن مرة أخرى : « يا خوي يا معن ، فش غيرنا وغير الكلاب في الشوارع في الليل » . لم أجبه وكذلك عبد . أكمل مازن قائلاً : معن . . ما رأيك في أن تضع قطعة سلاح عندك في البيت؟ قلت له : أرجوك ، إبعد السلاح عني . ذكّرني مازن بتلك الليلة حين أتى لزيارتي بسلاحه ، وبدأ هو وعبد يفككانه قطعة قطعة ، ذكّرني كيف خطفت السلاح منه ، ووضعته في سريري ، وأقفلت عليه غرفة نومي ، ووضعت مشط الرصاص والمفتاح في جيبي ، سألني مازن : هل ما زلت تخاف السلاح . فأجبته ضاحكاً : نعم . فضحك هو الآخر ، أيضاً .

غادرنا حاجز مازن لنصل إلى حاجز آخر وآخر. وكعادة الحاجز الذي يوجد بجانب بيتي، سحبوا أقسام أسلحتهم علينا، علق عبد كما دائماً: إلحق يا أبو سمارة . . طخونا. ضحكت، ولم أعلق بشيء.
هذا الصباح، حيث كنت أبحث عن تقرير مالي للعمل ضائع مني، كنت أبحث عنه على مكتبي في البيت، سمعت صوت انفجارين، لم أنتبه كثيراً لذلك، خصوصاً أنني اعتدت على سماع هذه الأصوات كل يوم، ولأكثر من مرة.
فتحت التلفاز بعد وقت قليل لأعرف موقع الانفجارين، قرأت ما كتب على شاشة تلفاز «وطن»:
«خبر عاجل: قوات الاحتلال الصهيوني تقصف مكتب أبو علي مصطفى، الأمين العام للجبهة الشعبية في مدينة البيرة».
أذهب إلى المطبخ لأشرب الماء، وعندما عدت لمشاهدة التلفاز، وجدت الخبر قد تحول: «خبر عاجل: قوات الاحتلال تغتال أبو علي مصطفى، الأمين العام للجبهة الشعبية في مكتبه في البيرة بعد قصفه بصواريخ طائرات الأباتشي».
دموعي تسقط لأول مرة منذ بدء الانتفاضة، أشعر بالقرف من كل شيء، هاتفت أبي وسألته: إلى متى؟ فضحك، وقال: لا أعرف! أخبرت سيرين بالخبر، واتصلت بأحلام ونرمين، وسألتهما عن مكان وجودهما، أجبن بأنهما في موقع الحدث، تشاهدان المكان.
اتصلت بعلي وصرخت فيه: سأسافر قريباً، لن أبقى هنا! أقفلت الهاتف، وضحكت من نفسي كثيراً، قبل أسبوعين فقط، كنت أقاطع كل من يفكر بأنه يجب أن يترك الوطن، ويعيش في الخارج، كنت أقول: إن هذه الأرض هي أرض الموت والأحلام، وأنا أعشق أحلامي بها، ما أصعب أن يضعف إنسان لدرجة تجعله مستعداً لدفن أحلامه.
أذكر هذا المقطع من قصيدة كتبتها سابقاً بعنوان هذيان:

«بكيتُ . .
ضحكتُ
على امتداد
البكاء
ومتُّ
على امتداد
الضحك».

الثالث عشر من آب، لم أر الليل في رام الله في هذا التاريخ منذ ثلاث سنوات، ربما صدفة أن يكون موعد سفري كل مرة في هذا اليوم، أقفلت نافذة غرفتي صباحاً.

- سأقفل النافذة.
- لماذا؟
- لا أريد أن أرى شيئاً.
- ولكن كيف ستنظر للأشياء؟
- سأفتح نافذة أخرى.
- ونافذتك هذه.
- لا شأن لك بها. .
- وأين ستكون نافذتك الأخرى؟
- هناك. . .
- أين؟
- هناك. . .
- وماذا بعد؟ لن ترى شيئاً هناك.
- سأرى بعيني الثالثة؟.
- هل لك عين ثالثة؟.
- نعم.
- أين؟
- انظر جيداً.
- لا أرى شيئاً.
- افتح نافذة جديدة إذاً.

أبي جاء إلى مكتب التاكسيات ليودعني قبل سفري، لم أره منذ أكثر من عشرين يوماً وكذلك أمي، تواصلنا عبر الهاتف فقط. أخبرني أبي أن هناك أخباراً لم تؤكد بعد عن وفاة سليمان النجاب، عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، لم أكترث في بادئ الأمر للموضوع، لم أعلق بشيء.
السيارة ترتطم بصخر الجبال بين جبع والقدس، وقبلها بين قلنديا ورام الله. يخطر على بالي عنوان كتاب مذكرات فدوى طوقان «رحلة جبلية . . رحلة صعبة». السائق يطمئننا بين الفينة والأخرى: «لا تهتموا لما سيحدث للسيارة، أعدكم بأني سأوصلكم إلى أريحا مهما كان الثمن».
السيارة يزداد ارتطامها بالأرض، وتزداد ذاكرتي في نقش عنوان كتاب مذكرات فدوى.

***

ذهبت إليه أول مرة مع أبي، وكان ذلك بناء على طلبه، كان جالساً خلف مكتبه يرتدي بدلة سوداء وقميصا أبيض . . صافحته، وطلب مني الجلوس، قال: لقد قرأت لك الكثير من الشعر في الجرائد وفي «يراعات»، وطلبت من أبيك أن يعرفني عليك، أنا أحب كثيراً أن أتعرف على الشباب المهتم بالثقافة . . والله، كيف عملتها أخيراً . . والدك دائماً يقول أنك مشغول، وإنه لا يراك إلا قليلاً.

تحدثت معه لبعض الوقت، وغادرت وأبي المكتب بعد أن وعدت أبا فراس (سليمان النجاب) بأني سأزوره كثيراً بعد الآن.

***

نصل إلى أريحا بعد ثلاث ساعات من الطريق، نقف على حاجز الجيش الإسرائيلي على مدخل المدينة، يذهب عبد الحفيظ إلى الجندي ليطلب ماء بارداً، لم يعطه، وقال له: ستغادرون الحاجز بعد خمس دقائق. نصل إلى استراحة أريحا ، لا توجد طوابع بريدية لضريبة المغادرة، نمكث أكثر من ساعتين، ثم نصعد إلى الباص، نصل إلى نقطة التفتيش الإسرائيلية، يفتشون كل أشيائنا بدقة، ويطلبون منا خلع أحذيتنا وأحزمتنا، يفتشونها هي الأخرى، نصعد إلى باص آخر، ثم ننزل ونصعد إلى باص آخر، نصل إلى نقطة التفتيش الأردنية، يدخل كل زملائي، يسألني الجندي:

- أين ستذهب؟
- سأذهب إلى مؤتمر للشباب في جرش.
- اسمع، هذا كلام «فاضي». . أنا لا أؤمن بالمؤتمرات، يجب أن تخبرني عند من ستذهب، وإلا تعود من حيث أتيت.

بناء على طلبه، أعطيته رقم هاتف وعنوان منزل لأحد أصدقائنا في عمان.

دخلت الحدود الأردنية.

نصل إلى الفندق، حيث كان منير فاشة ينتظرنا في موقف سيارات العبدلي. قال منير: ستمكثون في هذا الفندق ليلة واحدة، وغداً ظهراً سنغادر إلى جرش. تصل سيرين إلى الفندق. عندما أرى هذه المرأة تجتاح جسمي حالة كبيرة من الفرح.

سهرنا معاً، وتناولنا طعام العشاء/ الغداء معاً ومع رفعت الصباح، وسامية، وكذلك صديقي أنس الذي كان قد استقبلنا في الفندق. كان عشاؤنا في مكان اسمه (الأماسي)، وربما كان في منطقة الصويفية في عمان، أترك المجموعة بعد العشاء، أردت أن أمشي في المدينة وحدي، أكتشف تفاصيل المكان وحدي، وربما كنت أفكر في حياة هذه المدينة. صادف أن رأيت شابين يلاحقان فتاتين في الشارع نفسه، ودون تورع من أحد، ولفترة طويلة، فجأة يخطر في بالي مجموعة أطفال مخيم الامعري الذين لم تتجاوز أعمارهم الحادية عشرة، هؤلاء أراهم كل ليلة في طريق عودتي إلى البيت وفي الوقت نفسه يقومون بعرض عسكري حبّاً وفداء لفلسطين. حاولت المقارنة، ولكني لم أستطع. ذات يوم في نهاية السنة الماضية قال صديق لي أثناء حوارنا: «المدن الكبيرة تستر الفضائح يا رفيق»، تذكرت صديقي، أيضاً.

كتبت حينها:

« أماه . .
هل كان رحمك ضيّقاً جدا لا يتسع لحلمي ؟
أماه . .
ما عدت أرى جسدي،
ولا أستطيع أن أراقب نمو شعري . .
ما عاد في عينيّ ماء أرطب به جلدي
أريد وجهي
أماه . .
ما ذنبي إن كان لا أب لي يحتضن عمري ؟!»

***

سألني أبو فراس حينها، وكنا نناقش قصة لي اسمها «هذيان أخير»، وما الفرق بين الغربة والمنفى؟ في إشارة منه إلى جملة في القصة « المنفى يولد الموت، والموت أقرب للغربة».

أجبته: «الغربة موت داخلي يخنق كل أحلامنا، والمنفى هبوط الطيور لوقت من الراحة في الرحلة الطويلة». يومها تناقشنا كثيراً في القصة، طلب مني أبو فراس أن أذهب، وأحاول قراءة كتاب ماركيز «مائة عام من العزلة»، وأهداني عددين مختلفين من مجلة «الكرمل»، ووعدني بأنه سيهديني عدداً آخر حال أن ينتهي من قراءة أحد المقالات لحسن خضر فيه، وأهداني ديوان شعر، أيضاً.

لو أن أبا فراس يعود الآن لأقول له: إن الغربة تلد الأحلام.

***

وصلنا إلى جرش، تحدثت وسامية عن أشياء أجهلها، ولا أدري كيف بدأنا بالحديث عن أبي فراس، سألتها عن ترتيبات الجنازة، تفاجأت من سؤالي، فهي لم تكن تعرف عن وفاته بعد، ذهبت سامية تبكي خارجاً، وربما حاولت، أيضاً، أن تتصل بأحد أقاربها لتتأكد من الخبر، ذهبت إليها واعتذرت عن نقلي الخبر لها، قالت: لا بأس، كان يجب أن أعرف في النهاية، تحدثنا معاً عنه قليلاً.

تجمعت كل الوفود في فندق غصن الزيتون، قرب جرش، تعارفنا، وحاولنا السهر معاً.

في نهاية السهرة، عند ما يقارب الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، حاول أنس أن يذهب إلى غرفته لينام، لكنه وجد إبراهيم نائماً، مكثنا أكثر من ساعة ونحن ندق على الباب، لكن إبراهيم لم يستمع إلينا... خفنا عليه كثيراً، قررنا أن نخلع الباب، حاول أبو جورج بجسده الضخم ضرب الباب، لكنه لم يستطع، صعدنا إلى السطح ووجدنا سلماً من الحبال هناك، تسلق عبد الحفيظ للغرفة، وفتح الباب ووجدنا إبراهيم نائماً، وقررنا عدم إيقاظه، وضحكنا كثيراً.

***

اتصل بي والدي بعد قصف مقر لقوات الـ«17» قرب بيتي ليطمئن عن حالتي، قلت له: إن كل شيء طبيعي، وإنني على ما يرام، أخبرني أن أبا فراس يبعث لي سلاماً كبيراً... سألته فرحاً: وهل عاد؟ قال: لا يزال يعالج في (مايوكلنك) أمريكا.. لم يعد بعد. أقفلت الهاتف بعد حديث طويل مع والدي، وذهبت أمشي في شوارع قريبة من البيت، يجب أن يعود هذا الرجل إلى بيته، لقد وعدته في زيارة لبيته في جيبيا، قال إنه يريد أن يريني تفاصيل الطبيعة هناك.

***

أذهب إلى موقع النقاش متأخراً كثيراً، يتضاحك الجميع حولي عليّ... تكلموا كثيراً عن تجاربهم في قلب الأمور، مجموعات شبابية عملت على إنتاج مجلات وأفلام فيديو خاصة بها وبتجاربها الحياتية، تكلموا بحماس وثقة كبيرة، قال أبو جورج إن هناك مبالغة في الحديث، ووافقته الرأي...

في اليوم التالي، تحدد موعد حديثي عن تجربتي في «يراعات» الساعة التاسعة صباحاً، فاضطررت أن أنهض باكراً، أتحدث كثيراً وبحماس كبير، أمضينا يومنا كاملاً في الحديث عن التجارب المختلفة.

***

بعد يوم من النقاش، والحديث عن التجارب المختلفة، ذهبنا إلى قلعة عجلون، كان منظر الغروب هناك جميلاً جداً، ذهبنا لتناول طعام العشاء في أحد المطاعم القريبة من القلعة، كنت أتناول عشائي مع سوسن، ونور، ونادية، ومحمد. كنا نتحدث عن فلسطين والوضع فيها، أذكر أن نادية قالت لي: «أنا أعتقد أن فلسطين جنة، والذي يخربها هو الاحتلال، وستحل كافة المشاكل فيها بمجرد خروجه منها». ضحكت وتحدثنا طويلاً عن ذلك، فجأة تحول المطعم إلى ساحة رقص، رقصنا كثيراً. في الليل وجدت أبا جورج يجلس حزيناً في إحدى الزوايا، وكذلك ميسون، علق أبو جورج: فرحنا مؤقت يا «أبو سمارة».

***

نصل إلى البتراء حوالي الثامنة مساءً.. كانت ليلة رائعة جداً.. لم أنم ولو لحظة واحدة.

نصل إلى عمان.. أتصل بصديقي علي لأقول له كل عام وأنت بخير في يوم ميلاده.. أتصل برائد، أيضاً، أصرخ فيه: يا جنوبي، أنا أعشق غربتي، ضحك، وقال: «يا زير، أنا أعرفك.. غربتك امرأة..»

***

اتصل بي إيهاب ظهر هذا اليوم، قال: يارفيق.. ألم تعد من سفرك بعد.. أنا أنتظرك..

ذهبت إليه لنكمل عملنا على إصدار مجلة «جسور»..

ذهبت إلى مكتب «ثريا عليان» في مؤسسة القانون، مكان عمل إيهاب، لأسلم عليها، تحدثنا قليلاً، قالت: «افتقدتك في جنازة أبي فراس.. كنت أعتقد أنك ستكون هناك، كان دائما يوصينا عليك، كان يحبك جداً». علّلت غيابي عن الجنازة بسفري، وقلت لها: كنت أرغب في زيارته في البيت، توفي هذا الرجل دون أن أوفي بوعدي له.

***

نذهب في المساء الأخير إلى بيت سوسن ونور، نجلس مع والديهما، ونتحدث عن الكثير من الأمور، الحديث مع والدهما ممتع جداً، نغادر بيتهن، ويغادرنا يوسف بعد أن نوصله إلى منطقة ما في عمان، ويغادرنا أنس ومنير بعد فترة قصيرة جداً، أذهب وعبد الحفيظ إلى حدائق الملك عبد الله، نتحدث قليلاً، ونشتري بعض الهدايا، ثم نودع بعضنا البعض.

أصل إلى الفندق الساعة الثانية عشرة ليلاً. . . أجلس وحيداً في غرفتي لبعض الوقت . . ثم أنزل وأجلس في حديقة الفندق . . أبدأ في الكتابة، وأنتهي عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

***

الجسر الأردني يكتظ بالناس، أزاحم وأنس الكثير من الناس، ونتعرض إلى الكثير من المضايقات والمشاحنات حتى نصل إلى شباك الأمن الأردني، تتم الإجراءات اللازمة، ونذهب لننتظر دورنا في صعود الباص، نصعد إلى الباص بعد ساعتين، حتى آخر نقطة حدود أردنية يتوقف الباص مدة ساعة ونصف لوجود أزمة في الجانب الإسرائيلي من الجسر.

مر أسبوعان إذاً في الأردن . . الوقت مرّ سريعاً جداً . . نمضي الوقت مع مجموعة رائعة تماماً، ومختلفة تماماً . . أجلس وأنس نقلب الذاكرة بعض الوقت . . تحدثنا عن تجاربنا بحماس، وكذلك الآخرون . . لكل من المجموعات طبيعة خاصة بها، طبيعة مختلفة عن المجموعات الأخرى . . ولكن الروح، والرغبة في إعادة تشكيل بناءات مجتمعية أو فكرية جديدة كانت واضحة عند الجميع . .

سأعود إلى رام الله إذاً . . . شعوري يمتلئ بالفوضى، سأعود إلى العمل الروتيني في «يراعات»، وإلى الجلوس خلف المكتب ساعات طويلة من الليل والنهار دون عمل شيء مهم، أو لعمل شيء ما في «يراعات»، أو أي مكان آخر . .

وسأعود إلى صوت الرصاص، والقنابل، وسماع قصص الموت . .

نصل إلى الحاجز الإسرائيلي عند مخيم قلنديا، جنوب رام الله، نسمع صوت إطلاق نار، نرى الجو ممتلئا بالغاز، تصرخ امرأة تجلس في المقعد الخلفي للسيارة في السائق بخوف كبير: «أرجوك . . ابتعد من هنا . . اذهب إلى طريق أخرى . . لا أريد أن أموت».

ندخل طرقاً ملتوية داخل المخيم . . نصل إلى رام الله الساعة السابعة والنصف مساءً.

سأراك يا أنس قريباً.

__ ألو . . مها . . لقد وصلت الآن . . سآتي لأزوركم غداً.

***

-ألو . . علي . . أنا في رام الله الآن، ومفتاح البيت ليس معي.

__ معن، وينك يا . . . .

__ بجانب تكسي العلمين.

__ انتظرني هناك . . سآتي الآن لآخذك.

__ أنا أنتظر.

***

- يا جنوبي، لقد أضعت هويتي الشخصية هناك !
- أين؟
- هناك؟
- ما تقصد؟
- أصبحت دون هوية!
- هل بحثت عنها هناك؟
- لا . . .
- لماذا ؟
- . . .
- يا زير، ابحث عن هويتك هناك.
- . . .
- لماذا لا تجب، لماذا لم تبحث عن هويتك هناك . . أو هنا؟!

---

* شاعر فلسطيني يقيم في رام الله.